سهام ماضية

للدكتور محمد مندور

هناك ثلاث رذائل كبيرة تنخر فى أخلاق الكثير من المصريين على نحو لم أر له شبيها فى بلد من بلاد العالم على كثرة مارأيت من بلاد وقابلت من بشر ، ولا بد من أن نفضحها لعلها تخفى عن نواظرنا شبحها المرذول فقد سئمت لقياها فى كل سبيل وعنحنى كل نفس .

أما أولاها فهى محاولة كل إنسان أن يوهمك أنه أكبر وأفضل وأعلم مما هو . ولقد كان من عادتى الصبر فكنت أتلقى هذه الدعاوى بصدر رحب ، ولكننى لم أكن ألبث أن أحس بنوع من اختلاس الثقة يحاوله من يتخطى حدود نفسه . وليس أمر على النفس ولا أهيج للحفيظة من خيبة الأمل . وإنه لمن اليسير على من أوتى شيئاً من الفراسة وسداد الرأى أن يحكم على الناس ويخزلهم منازلهم الحقة ؛ وإنه لمن الخير لنا جميعاً أن نحاول دائما احتلال المكان الذى نستحقه فى النفوس دون تطاول أو انحطاط ، وأما الإقحام فما نظنه يعقب أثراً باقيا حتى ولا بنفوس البله . ولست فى الحق بواثق من أن أمثال هؤلاء الناس الذين نشكو منهم الآن من الشكوى يعون ما يفعلون ، أم هم فى غفلة الغرور . ولكننى لاحظت فى الغالب الأعم أنهم مشربون بحقارتهم ، وأنهم يبذلون مجهوداً إراديا لتغطية تلك الحقارة بالإيهام . وذلك لما نلاحظه من هياج فى الحركات وضغط على مخارج الحروف وتصنع للانفعال وارتفاع فى الصوت وهلهلة فى ملامح الوجه وتنطع فى السكون والحركة .

وثانيتها غيرة مسرفة وحقد عجيب . ولكم ساءلت نفسى لماذا يشغل الناس أنفسهم بغيرهم إلى هذا الحد المدمر ، وتلك مشاعر خليقة بأن تنزل بالنفس الخراب . والذى عهدته فى النفوس القوية هو نزوعها المستمر إلى التسامى بذواتها . فهى تسعى لأن تكون فى يومها خيرا من أمسها ، وأن تعمل فى غدها ما يبذ عملها فى حاضرها . فاذا عز التسامى كان الاستجمام فى ثقة وتوثب . وأما أن يفنى المرء بياض يومه وسواد لياليه فى التفكير فيما وصل إليه هذا الشخص أو ذاك ، أو الخوف من أن يسبقك زيد أو بكر فهذا شعور صغير لا تعرفه إلا نفس صغيرة ، وهو دليل عدم الثقة بالنفس كما هو دليل على انهيار الشخصية ، وإن كان هناك شعور قبيح من مشاعر البشر فأجدر به أن يكون هذا الشعور .

وثالثها فساد عميق فى تربية الناس الاجتماعية . فقد تلاقى صنوفا من الأفراد بعضهم صغير وبعضهم كبير ، ولقد تتلطف مع الصغير بدافع إنسانى برىء ظانا أنك بعملك هذا تدخل السرور على نفس بشرية ، فاذا بك وقد سقطت هيبتك من قلبه ، وإذا به يتطاول إلى المساس بك فى غير ذوق ولا حياء . ولقد تفسح فى صدرك ، ثم يأتى يوم يتحرك دماك فاذا بك ترد فى عنف ، وإذا بالمسكين يصحو بعد غفلة ، وإذا به يشكو دون أن يفهم شيئاً أو يدرك له محنة . وإذا كان كبيرا ولكنه صغير النفس وعاملته فى رفق وتأدب ظن معاملتك ضعفا ، أو خيل إليه وهمه ذلك ، فاذا جاء يوم وصفعته صفع الأقوياء لأنك رجل عزيز النفس حامى الدماء أسقط فى يده وأخذه إما عناد الحمق وإما انهيار الأذلاء . ولست أدرى لذلك من سبب غير فساد التربية الاجتماعية ، فسادها فى المنزل وفى المدرسة وفى الوظيفة وفى الشارع وفى الدكان وفى المصرف وفى كل مكان ، حتى لكأنك تسير فى بلد كله أرقاء ، سيان فى ذلك سيدهم ومسودهم ، رئيسهم ومرؤوسهم ، بلاد منكودة وأخلاق مسفة ! أى عذاب نفسى فى أن تراك مضطرا إلى تقدير كل لفظ تقول وكل حركة أو ابتسامة أو تقطيب جبين ! أناس لا فهم لهم ولا تقدير ، لا يعرفون حداً يبدأون منه ولا حداً ينتهون إليه أنعام سائمة ! ترى أباستطاعتك أن تخلق لنفسك عقلية جديدة وذوقا جديدا وتربية جديدة تعاشى بها الناس ، أم تأخذك العزة فتثبت كما أنت محاولا أن تنقل العقول وتحول الأذواق وتسدد التربية لتستطيع أن تتفاهم مع الناس أو أن تقبلهم أو تطيق عليهم صبرا . هذه أسئلة لا يستطيع الإجابة عليها غير الله فإليه نفوض الأمر .

محمد مندور